التنصير والتعليم في إريتريا

د. جـــلال الديـــن محمد صالح (*)

تعدّدت أساليب التنصير ووســـائله في إفريقيا، منها: الخدمـــات الطبية والصحية والإغاثـــات والإعلام الموجّه والنشـــر.. وغير ذلـــك، إلا أن التعليم يُعد من أقوى الوســـائل وأهمها في عمليتي التنصير والتغريب.

حيث عملت البعثـــات التنصيرية في إفريقيا على تحقيق أغراضها من خلاله، والتمكين للمحتل، وغـــرس القيم الغربيـــة، كما عملت مؤسســـاتها التعليميـــة الكنســـية على إعداد جيـــل من أبناء إفريقيا لضمان اســـتمرار عمليتي تغريب القارة وتنصيرهـــا Christianize and westrnize؛ فركّزت نشاطها في اتجاهين، هما:

الاتجـــاه التنصيري: بحمـــل الأفارقة على اعتناق النصرانية.

والاتجاه التغريبي: بنقـــل موروثات الغرب ولغاتـــه وثقافاتـــه ونمط الحيـــاة الغربية إلى إفريقيا؛ للإبقاء على تبعيتها للغرب.

ولأكثـــر من نصـــف قرن اســـتمرت هيمنة الكنيســـة علـــى التعليم في إفريقيـــا، كما «في أوغندا التي ســـيطرت فيها علـــى التعليم منذ ١٨٧٧م إلـــى ١٩٢٥م، حيـــث جـــرى فـــي هذه السنة (١٩٢٥م) تأســـيس المجلس الاستشاري للتعليم الإفريقي الذي تمثّلت فيه دوائر الحكومة والإرســـاليات التنصيرية والجماعات الإفريقية والأجنبية، وبخاصـــة الكاثوليكية... وقد أدرك الأوروبيون أن اســـتمرار هيمنتهـــم على القارة الإفريقية يتوقّـــف على مدى تأثيرهم في عقول أبنائها ونفوســـهم، وبخاصة النُّخب منهم، ومن هنـــا أُنيط بالكنيســـة القيام بهـــذا الدور الهام والخطير، عبّر عبده موميني عن ذلك بقوله: (إن التعليم التنصيري الاســـتعماري قد أفسد تفكير الإفريقي وحساسيته، وملأه بعقد شاذة) »[1].

هدف الإرساليات التنصيرية ليس هو إدخال الفرد المسلم في النصرانية فحسب، وإن كان لهذا الهدف أولويته وأهميته، وإنما أيضاً تحييده، وتشكيكه في الإسلام

لم يكن اهتمام مؤسّســـات التعليم الكنسي بالشخصية الإفريقية والبيئة الإفريقية للأخذ بيد الإفريقي ليواكـــب ركب الحضارة والتقدّم، وإنما كان بهدف تنصيـــره والتأثير في تفكيره وســـلب إرادته؛ حتى يســـهل قياده، واستنزاف خيرات بلاده، حتى بعد الاستقلال، صرّح بذلك أحد مؤسّسي الأليانس فرانســـيه بقوله: «من الضروري ربط المستعمرات بالبلد الأم بواسطة رابطة نفســـية شديدة الصلة في مواجهة اليوم الذي ينتهي إليه ســـعيها للتحـــرّر القومي إلى شـــكل من الاتحـــاد الفيدرالي - حســـبما هو

(*) أكاديمي إريتري، وأستاذ مشارك بجامعة نايف العربية للعلوم الأمنية - الرياض.

(١) الاستعمار والتنصير في إفريقيا السوداء:
http://www.sawaa.org/pages/book.php?bcc=5535&itg=5&bi=121&s=ct

محتمل –، حيث يصبحون ويظلون فرنسيين في اللغة والتفكير والروح؛... فكان محتوى التعليم أوروبياً بحتاً، فعندما ذهب أطفال البمبا إلى المدرسة كي يتعلموا مقرراً دراسياً عن حياة النبات تلقوا تعليماً عن الزهور الأوروبية ولم يتلقوا تعليماً عن أشجار إفريقيا»[١].

لقد تضافرت جهود سلطات الاحتلال مع جهود الكنيسة، فلم تقرّ من المناهج إلا ما كان منسجماً مع سياسات الاحتلال، ولم تحترم الثقافة الإفريقية إلا إذا كانت مورِّثة للانقسام، باعثة على التنافر والاقتتال بين الأفارقة، على نحو ما حدث في قانون تعليم لغة البانتو، وهو القانون الذي عمل على توطيد الاختلافات بين الزولو والسوتو والأكسوزا، كما حرص المنصِّرون والمستعمرون على تقديم تعليم متواضع غير مواكب، وبالقدر الذي يحقّق عمليتي التنصير والتغريب.

دلائل كثيرة تقف شاهدة على ما أحدثه التعليم الكنسي من عمق التأثير السلبي والاستلاب في الشخصية الإفريقية، أبرزها التخلّف العام، وفقدان الهوية والتبعية، «فبلدان إفريقيا في الغالب الأعم لا تتخذ من لغاتها المحلية لغات رسمية، كما أن نمط الاستهلاك الغالب فيها هو النمط الغربي... لقد صرّح بعض الطلاب الذين ظهروا في إرسالية ليفنجستونيا وإرسالية بلانتاير في مالاوي بأنهم اسكتلنديون سود، أما الكريوليون والسيراليون فكانوا يختارون لقبين أوروبيين، ويربطون بينهما بواصلة... كما جاءت أشعار سينغور الذي أعطى أعماله كلّ اختلاجات الروح الكاثوليكية معبّرة عن الاستلاب الحضاري الثقافي الإفريقي»[٢].

هذا الواقع شهدته كلّ أنحاء إفريقيا، شرقها ووسطها، وجنوبها وغربها، ومن بين دول القارة التي تعرّضت لعمليتي التغريب والتنصير إريتريا التي يسعى المقال لبيان دور التعليم التنصيري في ذلك.

الهجمة التنصيرية على إريتريا:

أول هجمة تنصيرية عرفتها إريتريا من الأوروبيين كانت عام ١٥٤٠م، حين دخل البرتغاليون مدينة «مصوع»، وحوّلوا أحد مساجدها إلى كنيسة[٣]، وذلك حين أنزل «استيفانو دا جاما» إلى «مصوع» قوة تبلغ ٤٠٠ جندي بقيادة شقيقه «كرستوفر»[٤].

ثم توافدت إليها بعد ذلك الإرساليات التنصيرية بمختلف جنسياتها، فوصل إليها العازاريون الفرنسيون، وسبق وجودهم فيها الإيطاليون، وكان المنصِّر الفرنسي «أبونا بيكار» هو أول من وصل «كرن»، ودخلها عن طريق بلاد «المنسع»، وهكذا دخلت المسيحية الكاثوليكية «كرن» لتحلّ محلّ المسيحية القبطية قبل أن تصل إلى «أسمرا».

وفي ظل الوجود الإيطالي ظل العازاريون الفرنسيون يتمتعون بسلطات واسعة، حتى إن «فارديناندو مارتيني» عبّر عن قلقه «من السلطة المعطاة للرهبان الفرنسيين وحدهم على الأقلية الكاثوليكية، في «سجنيتي» و «أكلي جوزاي» »[٥].

تحدّث «أدولفو روسي» عن بعثة «لازاريستي» التي كانت في منطقة «تانتروي كرن» بقوله: «ولها مدرسة لتعليم السكان المحليين، يتخذها بعض الرهبان وسيلة للتبشير... وتمتلك هذه

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: عثمان صالح سبي: تاريخ إريتريا، ص ٦٤.

(٤) حراز، رجب: إريتريا الحديثة، ص ٢٩.

(٥) انظر: إريتريا في إفريقيا الإيطالية، ص ١٢٣.

البعثة مطبعة صغيـــرة، تطبع فيها كتب التعليم المسيحي، وكتب العبادة باللغة المحلية، وبعض القرارات التي يصدرها حاكم البلاد»[١].

وتضايق «أدولفو» من رئاســة الفرنســيين لهذه البعثة مســتنكراً ذلك؛ لكون المســتعمرة مســتعمرة إيطالية، وحكّامهــا الطليان، وفي هذا يقول معبّراً عن امتعاضه وشــدّة غضبه: «وعندما يــزور البعثة مواطن إيطالي لأول مرة قد يصيبه شــعور بغيض حين يــرى أن البعثة يديرها الراهب الفرنســي الأب «كوليو»، وهو رجل طويل وفظ، يقطن في هذا البقاع منذ أكثر من خمس وعشــرين ســنة، ولا يهتم بالسيارة، واللغة الفرنســية هي لغة البعثة، ويتحدّث بها عادة الطلاب الشباب الكهنة»[٢].

ثــم يلحّ على أن تكون البعثة تحت إدارة كهنة ورهبان إيطاليين، فيقول: «ولكن حكّام إريتريا اليوم هم الإيطاليون، وينبغي – ســواء أكان ذلك حسناً أم ســيئاً – بذل كلّ جهــد؛ ليكون على رأس هذه البعثات كهنة أو رهبــان من الإيطاليين، وإلا فإن ما سنكسبه من ناحية مضحّين من أجله بالكثير؛ ســنفقده من ناحية أخرى، وقــد علمت أيضاً أن الأخوات الراهبات اللواتي يدرن مدرســة لأولاد السكان المحليين، ترأسهن راهبة فرنسية»[٣].

ثم أخرج الإيطاليون الفرنســيين فيما بعد، ربما لتنافس اســتعماري، وإلــى تأثيرهم يعزو «فردينادو» تمرد «بهتا حقوس» على الإيطاليين، فهــو قد تنصّــر واعتنق الكاثوليكيــة على يد الرهبان الفرنســيين، بعد أن كان مسلماً، وفيه يقول «فردينانــدو مارتيني» في كتابه المذكور: «مسلم اعتنق الكاثوليكية مع زوجته... يقال: إن العازاريين الفرنسيين هم الذين أثاروه ضدنا – يعني ضد الإيطاليين –، وقد ساءهم إخراجهم مــن إريتريا، وهذا ممكــن؛ لأن «بهتا حقوس» كان يحــب العازاريين الذين اعتنق على أيديهم الديانة الكاثوليكية»[٤].

أجاد كثير من المنصِّرين اللغات المحلية، فتحدّث عدد منهم «التجري»، و «البلين»، وبهذا كسروا حاجز اللغة، وتمكّنوا من مخاطبة الناس باللغة التي يفهمونها

ومما يهمنا ذكــره هنا هــو أن الجنرال «باراتييــري» حاكم إريتريا الإيطالي كان بتاريخ ١٥ ديســمبر ١٨٩٤م موجوداً في «كرن» عندما بلغــه تمرّد «بهتا حقوس»، ومن «كرن» أبرق إلى الميجر «توسللي» في «أسمرا» آمراً إياه بالزحف إلى «سجنيتي» لقمع ثورة «بهتا حقوس» »[٥].

و «بهتــا حقوس» هذا وُلد في «ســجنيتي» عاصمة «أكلي جوزاي»، وكان حاكماً لإقليم «أكلي جوزاي»، وفي عام ١٨٧١م قتل «الفيتوراي إيمبي» أحد أقارب «يوحانس»، وهرب لاجئاً إلى منطقة الحباب في الساحل الشمالي من إريتريا[٦].

كان «بهتا حقــوس» من حلفاء الطليان قبل أن يتمرّد عليهم، ويشــق عصا الطاعة، وكانت له وحدة ضمن الوحدات الإيطالية، حيث يقول «أدولفو»: «إن وحدة «بهتا حقوس» وحدها تكلّف

(١) إريتريا اليوم، ص ٨٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٢.

(٣) إريتريا اليوم، ص ٨٢.

(٤) إريتريا في إفريقيا الإيطالية، ص ١٠٢ – ١٠٥.

(٥) حراز، رجب: التوسع الإيطالي في شرق إفريقيا، ص ٣٧٨.

(٦) حراز، رجب، المصدر نفسه، ص ٢٧٦.

في مسيرتها هذه خمسمائة ليرة يومياً... إن «بهتا حقوس» يعتنق المذهب الكاثوليكي، وعندما يتوقف للراحة أثناء المسيرة الطويلة تحت ظلال بعض الأشجار يحيط به عدد من الرجال المسلحين باعتبارهم حرس شرف، وما أن يجلس حتى يحيط به الخدم؛ ليقدّم أحدهم اللحم المشوي، والآخر يقطّعه له قطعاً صغيرة، وآخر يقدّم له كأس الطج، ورابع يقدم له كأس الشراب المليئ بالعسل المخمّر مضافاً إليه عطر بعض الأعشاب»[1].

ووفقاً لما ذكره «ألم سجد» أنه كان يقوم بممارسة النهب والسلب، ونتيجة لذلك يرى فيه بعض سكان المرتفعات: أحد أولئك الأشخاص الذين تركوا أثراً سيئاً في حياتهم[2].

وحرّض العازاريون الفرنسيون «بهتا حقوس» على هذه الثورة وهذا التمرد عن طريق أحد القساوسة الكاثوليك الإريتريين، وهو الكاهن «شيفلا مريام» من «أشرا»، وتمكّن هذا الكاهن من ترتيب اجتماع سري بين «الرأس منجشا» حاكم تجراي و «بهتا حقوس»، وفي هذا اللقاء السرّي حصل الاتفاق على هذه الثورة وهذا التمرد على الطليان الذين تفاجؤوا به في منتصف ديسمبر ١٨٩٤م[3].

هكذ ندرك أن للرهبان الفرنسيين وجوداً سابقاً للإيطاليين في مدينة «كرن»، وأن للغة الفرنسية وجوداً سابقاً على اللغة الإيطالية، وأن الطرفين كانا يقومان بدور سياسي تنافسي ضمن المخطط الاستعماري، مستغلين الدين في خدمة أهداف استعمارية، إيطالية أو فرنسية.

(١) إريتريا اليوم، ص ١١٨ – ١١٩.

(٢) ألم سجد: لن نفترق، ج ١ ص ٥٩.

(٣) حراز، رجب، مصدر سابق، ص ٣٧٧.

وما زالت آثار الإرسالية الفرنسية التنصيرية باقية فيها حتى الآن، فهم أول من أنشأ أول مدرسة تنصيرية في «كرن»، وتقع هذه المدرسة في «كرن لعالاي»، وما زالت حتى هذه اللحظة تقوم بنشاطها التعليمي على الأسس التي قامت عليها، وتُسمّى «مدرسة قدوس مكئيل».

بعد ذلك صارت الغلبة للبعثات الكاثوليكية الإيطالية التي نشطت وتكاثرت بكثافة، وأنشأت مدارس تنصيرية عديدة، في أزمنة مختلفة، ومما عرفناه من هذه المدارس مدرسة «سانتا أنتونيو»، ومن هذه المجموعات التنصيرية التي عرفتها أرض البجوس «مجموعة لاسالي» في «كرن لعالاي»، أسّسها قساوسة إيطاليون.

كذلك جاءت لاحقاً المجموعات البروتستانتية، ورئاستها في مدينة « جلب» منطقة «المنسع»، ولها فرع في «كرن»، وقساوستهم سويديون، وكانت مدارسهم مفتوحة للجميع، وخرّجت العديد من الطلبة، بعضهم واصل في المدارس الوسطى الحكومية، ومن أشهر قساوستها المنصِّر «رودين».

ويعود وجودهم إلى عام ١٨٩٤م، حيث كان المنصِّر السويدي «رودين» وزوجته يعملان في «جلب» ومعهما ابنتهما؛ كما يقول «أدولفو» مشيراً إلى دورها في ترجمة الكتاب المقدّس إلى اللغة المحلية: «يقيم السنيور رودن هنا [يقصد جلب] مع زوجته السويدية، وابنته الشقراء التي وُلدت في «جلب»، وتترجم إلى لغة «التجري» الكتاب المقدّس والتوراة بذكاء ونباهة فائقين، وهي تقارن النص باستمرار مع النصوص العبرية، واليونانية، واللاتينية، والإنكليزية، والسويدية، والإيطالية، كما جمعت أجمل الأغاني الشعبية لقبائل «المنسع» بلغة «التجري» »[4].

(٤) إريتريا اليوم، ص ١٠٣.

وحسبما ذكر «روسي» كان سكان «جلب» وقتها ٧٠٠٠ نسمة، وكان لدى البعثة السويدية ستة عشر شاباً محلياً، يدرسون اللغة الإيطالية، بالإضافة إلى أشياء أخرى[١].

وإلى جانب صور القديسين، كالعذراء مريم والمسيح عيسى عليهما السلام، كانت أماكن العبادة التابعة للبعثة السويدية تعلّق فيها صورة ملك السويد، وملك إيطاليا، ففي وصف له لمكان العبادة الذي دخله «روسي» في «محلاب» يوم ٢٨ يناير ١٨٩٤م يقول: «وعلى الجدران خريطتان ولوحتان زيتيتان، تمثّلان يسوع وصعوده إلى السماء، وصوراً لملك إيطاليا، وملك السويد»[٢].

ويبدو أن «جيوفاني استيلا» وصاحبه «جيزبي» هما أول مَن وطئ أرض «كرن» من الإيطاليين، حيث وصلا إليها عام ١٨٥١م، أي قبل دخول الاستعمار الإيطالي بـ (٣٨) سنة، و «أسّسا فيها إرسالية عزارية، وتولى فيها «استيلا» مهمة التنصير، حتى طرده منها «مينزنجر» عام ١٨٦٩م»[٣].

ولأن القوى الاستعمارية كانت تتنافس فيما بينها للاستيلاء على «كرن»؛ فإن «جيوفاني استيلا» عمل بكلّ حماسة لمصلحة الفرنسيين، وعنه يقول المؤرّخ الأوروبي «سفين ربنسون»Seven Rupenson : «لقد كان تفكير «استيلا» الذي أسّس البعثة في «بجوس» عام ١٨٥٢م يبدو من الوهلة الأولى أنه لا يصب على أنه يمثّل الجماعة الكاثوليكية فقط، بل يمثّل محمية أو مستعمرة أوروبية أيضاً، إذ أكّد أن شعوب «بجوس» و «منسع» هي شعوب مستقلة، وأنهم نتيجة استقلالهم وعقيدتهم الكاثوليكية سوف يسعون لطلب حماية الحكومة الفرنسية ضد غزوات النائب [يعني في مصوع] وحاكم تاكا [يعني كسلا]، وإذا حصلوا على هذه الحماية فإن كثيراً من القبائل المجاورة لهم، مثل البني عامر، والباريا، والكوناما، سوف تحذو حذوهم»[٤].

وهو الذي أكّد للحكومة الإيطالية إمكانية إنشاء مستعمرة مزدهرة في إقليم الحماسين الذي يعد من أغنى أقاليم الحبشة وأكثرها خصوبة[٥].

وحسب كلام «ألكس هاملتون»؛ فإن أول مدرسة للكنيسة الكاثوليكية الرومانية في «كرن» بدأت عام ١٨٥٩م، غير أنها لم تستمر إلى ما بعد عام ١٩١١م[٦].

ظلت الإرساليات التنصيرية تلاحق الإريتريين حتى في مواطن هجرتهم، مستغلة حاجتهم إلى التعليم والصحة

ويظهر لي أن إبعاد «استيلا» الإيطالي، من طرف «مينزنيجر» السويسري، من منطقة «كرن»، إنما هو لدواعي التنافس الاستعماري بين القوى الأوروبية، بمختلف مؤسّساتها الاستعمارية، وما المؤسّسة التنصيرية إلا واحدة من هذه المؤسّسات الداعمة للاستعمار، والمهيئة له، أو الزاحفة معه، لنشر ثقافته، ومعتقداته، حتى

(١) المصدر نفسه، ص ١٠٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٣.

(٣) انظر: الدكتور بيان صالح: الدعوة الإسلامية في إريتريا، ص ٣١١ – ٣١٢.

(٤) بقاء الاستقلال الإثيوبي، ص ١٦٨.

(٥) يحيى، جلال، مهنا، محمد نصر: مشكلة القرن الإفريقي، ص ٦٧.

(٦) Keren The Essence of Eritrea p 23

يكون له بين الشعوب التي يحكمها مَن يواليه، ويرتبط به ثقافياً، ومعلوم أن المنصّر الإيطالي «سابيتو» هو الذي مهّد لدخول الاستعمار الإيطالي إريتريا، وذلك حين اشترى قطعة أرض في «عصب» باسم شركة «روباتينو».

على كلٍّ؛ عندما دخل «استيلا» منطقة «كرن» اتبع خطة هادئة ومتأنية في سلوكه التنصيري بين «البجوس»، إذ بدأ أول ما بدأ بـ «التوفيق بين أُسر البجوس المتنازعة، وإزالة أسباب النزاع بينهم... وعلّمهم احترام روابط الزواج، وعدم المساس بأملاك الغير، وبذلك أصبح بعد بضعة أعوام الواعظ، والحكم لسكان إقليم البجوس، الذي كان يتكوّن من سبع عشرة قرية، وعشر قرى أخرى مجاورة لهذا الإقليم»[١].

وكان «استيلا» هذا يقوم ببث الفتن الطائفية، كما كان القنصل البريطاني لدى الأتراك في «مصوع» يأتي للمنخفضات الإريترية ليؤيد «خلافات الأب «ستيلا» للكاثوليك في مناطق الهضاب ضد جيرانهم المسلمين في المناطق المنخفضة»[٢].

وهذا يشير إلى أن الأب «استيلا» Stella كان يحمل أهدافاً سياسية، تخدم جهة استعمارية بعينها، وهي هنا فرنسا، وللدلالة على ذلك يكفي أن نعلم أن «كونت بيسون» Count Bisson وهو فرنسي اقترح على مصر فتح إثيوبيا في العام التالي سنة ١٨٦٤م، على أن يبدأ هو بتدريب القوات المصرية طبقاً للأسلوب الفرنسي، موضحاً أن ظروف غزو إثيوبيا قد أصبحت مهيّأة بفضل البعثة التبشيرية الكاثوليكية التي أرسل رئيسها الأب «استيلا» Stella في «بجوس» برسالة ذكر له فيها أنه اتفق مع سكّان «تيجراي» على القيام بثورة ضد «تيودور» »[٣].

وقد اتخذت الإرسالية التبشيرية الكاثوليكية من «بجوس» منطلقاً لها بسبب افتقارها إلى «الأمان الديني والسياسي في «تجراي»، وهو ما دفعها إلى الاتجاه شمالاً والاستقرار في «بجوس»، وقاد الإرسالية إلى منطقتها الجديدة «بجوس» كلٌّ من «سابيتو» و «استيلا»، وذلك في سنة ١٨٥٢م، حيث نقلوا مركز الإرسالية من «عدوة» إلى «أكلي جوزاي»[٤].

وما زال في «أسمرا» «معهد كمبوني» الذي يُعد معلماً من معالم التنصير في إريتريا، يحمل اسم المنصِّر الإيطالي الشهير «دانيال كمبوني» حامل شعار «نحو إفريقيا مسيحية».

وطبقاً لما نشرته مجلة (World wide) الصادرة عن كنيسة جنوب إفريقيا، عدد أكتوبر / نوفمبر ٢٠٠٣م: «وُلد «دانيال كمبوني» في «ليمون سول جادرا» بشمال إيطاليا في ١٥ من مارس عام ١٨٣١م، وقادته فكرة التنصير للالتحاق بمعهد «دون مازا» في «فيرونا»، في العام ١٨٤٩م، وغادر إلى إفريقيا بعد ذلك بثلاث سنوات... تُوفي في الخرطوم بالسودان في ١٠ من أكتوبر عام ١٨٨١م».

لقد أدرك «كمبوني»، ورفاقه المنصِّرون، بمختلف مدارسهم ومذاهبهم التنصيرية، أهمية التعليم في بناء أجيال تؤمن برسالتهم، وتسعى في نشرها، ومن هنا أصبح لهم وجود مبكّر في الساحة التعليمية، في كلّ إفريقيا، وعلى أساس من هذا الوجود تولّوا أمر التعليم في إريتريا منذ أمد بعيد.

وأكّد لي بعض الذين درسوا في «مدرسة كمبوني» بـ «أسمرا» أن قوانين «مدرسة

(١) د. بيان صالح: المصدر نفسه.

(٢) محمد، إبراهيم عبد المجيد: ثيودور الثاني إمبراطور إثيوبيا، ص ٤٠.

(٣) أنتوني سوريال عبد السيد، مصدر سابق، ص ٦٢.

(٤) المصدر نفسه.

كمبوني» كانت تمنع الطلاب المسلمين من إقامة الصلاة في المدرسة، أو الاستئذان للخروج لأدائها، وكانت لا تعطّل الدراسة يوم الجمعة، ولا لصلاة عيدي الفطر والأضحى، وتُنذر طلابها المسلمين من الغياب بمناسبة العيد، وإلا تعرّضوا للفصل النهائي من الدراسة، ولهذا كان الطلاب يتوجّهون صبيحة يوم العيد إلى المدرسة في حين يتوجّه آباؤهم إلى المصلّى لأداء صلاة العيد، وبلا شك؛ كان هذا من مقتضيات التربية التنصيرية في عزل الشاب المسلم عن قيم الإسلام قدر المستطاع.

يقول ممتاز العارف متحدثاً عن نشاط الإرساليات التنصيرية التعليمي في إريتريا: «وكانت الإرساليات التبشيرية الأجنبية التي بدأ نشاطها وفعالياتها منذ أمد بعيد؛ تُعنى بتوفير قسط بسيط من الثقافة الدينية، وتعليم اللغات الأجنبية، في المدارس الخاصة الملحقة بها، وكان في مقدمة هذه الإرساليات البعثة السويدية البروتستانتية الإيفانجيلية»[١].

وشيّد العازاريون كما يذكر «فرديناندو» «كنائس في كرن، وشينارا، وأكروا، والستيانا»[٢]، وأقاموا «مطبعة تطبع كتب الصلاة بلغة الجئز...»، وكان منهم «الأب بيكار» الذي استقر في «بلاد البجوس... وكان قد طرده إليها رأس ألولا»[٣]، وقد حاز هذا المنصّر على نفوذ قوي، مكّنه «طيلة المدة التي حكم فيها المصريون من منع بناء جامع في المنطقة»[٤]، أي في منطقة «البجوس».

وفي سبيل دعم نشاطهم التنصيري في منطقة «كرن» امتلك «الآباء العازاريون مصنعين كبيرين أحدهما في شينارا، والثاني في موداكا»[٥]، أيضاً امتلكوا أرضاً واسعة، وظّفوها للإنتاج الزراعي، منها تلك «الأرض التي كانوا يملكونها على ضفة نهر عنسبة، وكانت تنتج فاكهة وخضاراً، يقدّر ثمنها بـ ٨٠٠٠ ليرة، وتكلّف العناية بهذه الأرض ٢٠٠٠ ليرة سنوياً»[٦].

لم يكن اهتمام مؤسّسات التعليم الكنسي بالشخصية الإفريقية للأخذ بيد الإفريقي ليواكب ركب الحضارة والتقدّم، وإنما لتنصيره والتأثير في تفكيره وسلب إرادته

واستغلوا حاجة أهل المنطقة إلى المال، وغفلتهم عن إدراك أهمية الأرض، وقيمتها العالية في الشأن الاقتصادي لهم ولأبنائهم من بعدهم، فأغروهم ببيع أرض واسعة مقابل ثمن بخس، من ذلك أن «ميخائيل» ترجمان البجوس – كما يسمّيه فرديناندو – باع «قطعة أرض واسعة مقابل بقرة، وهذه الأرض تكفي لإقامة عشرين عائلة مزارعة بكاملها في إيطاليا»[٧].

نشاط المنصِّرين التعليمي بعد جلاء الاستعمار الأوروبي:

بعد جلاء المستعمر الأوروبي من إريتريا بخروج الإنجليز منها، ومجيء العهد الفيدرالي، ثم الاستعماري الإثيوبي، الذي امتد لثلاثين عاماً، ظلت الإرساليات التنصيرية تعمل في ميدان التعليم بكل

(١) إريتريا بين احتلالين، ص ٢٥١ – ٢٥٢.

(٢) إريتريا في إفريقيا الإيطالية، ص ١٢٢.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

(٤) المصدر نفسه والصفحة.

(٥) المصدر نفسه والصفحة.

(٦) المصدر نفسه والصفحة.

(٧) المصدر نفسه والصفحة.

نشاط وحيوية، ومن مدارسها في «كرن» المدرسة الإيطالية، وهي مدرسة تنصيرية، المعلمات فيها راهبات، يُعرفن بأزيائهن، وصلبانهن تلمع على صدورهن، وظلت تستقبل أبناء المسلمين.

كذلك توجد في «كرن لعالاي» مدرسة تنصيرية تُعرف بـ «مدرسة بادري»، تبدأ الحصة الأولى فيها بمحاضرة تنصيرية، وفي منطقة «دعاري» توجد مدرسة تنصيرية للصم والبكم.

كما أن منصِّراً كندياً أو أمريكياً - لست على يقين من جنسيته -، يُدعى «مستر هيو» أسّس داراً لرعاية الأيتام والمشرّدين، وكان يلتقطهم من الطرقات، ويلقي عنهم ملابسهم الرثّة والبالية، ويعالج أمراضهم، ويُسكنهم في مساكن داخلية، ثم يقوم بتدريسهم وتعليمهم، وقد خرّج منهم عدداً كبيراً، وكان يأتي بالمسلمين منهم إلى جامع «كرن» لصلاة الجمعة، ليبدي حياديته، ويُعَمِّي على أهدافه التنصيرية، في حين أنه بفعله هذا إنما كان يؤدي واجبه التنصيري، وذلك من خلال نَصْرَنَة الإسلام في أذهان طلابه، وذلك باختصار العبادة في ساعة واحدة من يوم الجمعة، كما هي العبادة في العقيدة النصرانية، تكون في ساعة واحدة من يوم الأحد، ثم لا علاقة لهؤلاء الطلاب بالمسجد في الأوقات الأخرى من باقي الأيام، إنها أوقات خالصة له، ينفرد بهم ليوجّههم وفق رسالته التنصيرية.

وأجاد كثير من هؤلاء المنصِّرين اللغات المحلية، فتحدّث عدد منهم «التجري»، و «البلين»، وبهذا كسروا حاجز اللغة، وتمكّنوا من مخاطبة الناس باللغة التي يفهمونها، ومعلوم عن المنصِّر الهولندي «باندبل» أنه أقام بمدينة «بورتسودان»، وتعلم اللغة البيجاوية، ثم قام بترجمة الإنجيل إليها.

مستر ديفيد المنصِّر البريطاني:

وفي الستينيات عرف والدي - رحمه الله -، وهو الشيخ محمد صالح حاج حامد منشئ مؤسّسة «أصحاب اليمين التعليمية» بـ «كرن»، منصِّراً بريطانياً يُدعى مستر «ديفيد»، وكان يجيد العربية بحكم أنه عاش فترة في مصر، وكان نشاطه التنصيري منصباً على مناطق «الكنامة»، كما كان نشاط الوالد أيضاً يستهدفهم، وكانت المنافسة بينهما قوية، ومع ذلك كان يصطحب الوالد معه في سيارته كلما سافر من «كرن» إلى مناطق «البازا»، وكان يتحدّث معه عن أثر النشاط الإسلامي في «الكنامة»، ويقول له: «لا جدوى من إضاعة الوقت معهم، فإنهم لا يُقبلون على الإسلام»، بينما كان الوالد يؤكّد له خلاف ذلك، مستدلاً ببعض الظواهر الاجتماعية، ويقول له: «إنهم فقط يحتاجون إلى بعض المجهودات في تعريفهم الإسلام، وعندها لن يقبلوا به بديلاً».

كان هذا المنصِّر حريصاً على تعلّم لغة «التجرايت»، وطلب من الوالد تعليمه مقابل مبلغ من المال، ثم قيل له: إن أنظف نطق للغة «التجرايت» هو نطق «المنسع»، عندها قرّر أن يدرسها على رجال من «المنسع».

نتائج التنصير الخطيرة:

لقد استطاعت الإرسالية التنصيرية خلال الحقبة الإيطالية أن تحمل عدداً من المسلمين على الارتداد والتنصر، وإن كنا لا نملك إحصائية دقيقة عنهم، ومهما كان؛ فإن أسماء أحفاد هؤلاء المتنصّرين في العهد الإيطالي نجدها مقرونة بأسماء إسلامية، أما خلال الحقبة الإثيوبية فلم يسجّل لنا التاريخ نجاح هذه الإرساليات في تنصير نسبة كبيرة من الطلاب المسلمين الدارسين في مدارسها.

لكن من المعلوم لكلّ باحث في الشأن التنصيري أن هدف الإرساليات التنصيرية ليس هو إدخال الفرد المسلم في النصرانية فحسب، وإن كان لهذا الهدف أولويته وأهميته، وإنما

أيضاً تحييده، وتشكيكه في الإسلام، إن لم يمكن تنصيره، باعتبار ذلك هدفاً تالياً وتابعاً.

ونستطيع أن نجزم بأنها حقّقت على هذا الصعيد نجاحاً معتبراً، إذ أوجدت - كما يقول صموئيل زويمر المنصِّر الأمريكي الشهير - من خلال مدارسها التنصيرية والمدارس العلمانية أجيالاً من الشباب المعادي لعقيدته وقيمه، وأجيالاً من الشباب الجاهل بإسلامه، المحايد الذي لا تثيره أية هجمة معادية يتعرض لها الإسلام، أياً كانت طبيعتها، بل لجهله بالإسلام يردّد شبهات المنصِّرين وتشويشاتهم التي تلقفها سماعاً، من هنا وهناك، من دون وعي بمصدرها الأصلي، ومقصدها التخريبي، فتراه إذا ما تعامل مع الفكر الإسلامي أثار بعض الشُّبه الرائجة، ظناً منه أنها منقصة تُحرج الإسلام والمسلمين، وذلك لجهله بها، وبمدلولها الشرعي، فهو أمي بالنسبة لقراءة الإسلام، وفهمه، لا يُحسن قراءة كتاب إسلامي، ولا فهم نصٍّ شرعي، ومع ذلك إذا ما ناقش الفكرة الإسلامية أثار هذه الشُّبه، لمجرد أن ما يثيره المنصِّرون والمستشرقون شوش على فهمه المحدود القاصر، وهو عاجز عن ردّه.

مثل هؤلاء هم نتاج الهدف الثاني للنشاط التنصيري التعليمي والفكري في عالمنا الإسلامي بشكل عام، وقطرنا الإريتري بشكل خاص، وهم الذين يعاني منهم الإسلام في إريتريا.

أضف إلى ذلك مناهج التربية العلمانية التي تلتقي المناهج التنصيرية في تحييد المسلم وتشكيكه، وإخراجه إلى الحياة جاهلاً بالإسلام ومحايداً، يفتقد الغيرة على عقيدته الإسلامية، إن لم يكن مهاجماً لها، ومشاركاً في العدوان عليها، ليس يهودياً، ولا نصرانياً، ولكنّه مهيئ لكلّ فكر وافد من ملاحدة الغرب وفلاسفتهم، ينقاد له بلا مقاومة فكرية، ولا معارضة نفسية.

نموذج لمقاومة المدّ التنصيري في إريتريا:

ظلت الإرساليات التنصيرية تلاحق الإريتريين حتى في مواطن هجرتهم بعد اللجوء، مستغلة حاجتهم إلى التعليم والصحة، بحكم أنهم يعيشون في معسكرات اللجوء التي ينقصها الكثير من ضرورات الحياة السليمة.

ومما يحضرني ذكره هنا قصة الأخ محمد إدريس حدقي الذي وُلد بـ «كرن»، وعائلته معروفة من أشهر العوائل الكرنية، وعاش أول حياته في «كرن» إلى أن لجأت أسرته إلى السودان، وعاش معها بمعسكر «ود الحليو».

كان محمد هذا يعاني ضعفاً حاداً في بصره كأخويه الكبيرين داود وعمر رحمهما الله، استغل فيه المنصِّرون حالته هذه، فحاولوا تنصيره من خلال تقديم خدمات تعليمية مهمّة له، إلا أنه كان فطناً، وخلفيته الإسلامية تعد كافية في حمايته من التنصّر، فما انطلت عليه غايتهم من هذه الخدمات التي يقدّمونها له، مع أنه كان شديد النقد للمؤسّسات الإسلامية بسبب عجزها وعدم كفايتها في تقديم خدمات مماثلة.

على كلٍّ؛ استطاع الشاب محمد أن يستفيد من خدمات المنصِّرين هذه من غير أن يغيّر عقيدته، فتخصّص في الأدب الإنجليزي، وعاد إلى «كرن» قبل التحرير، وقام بمبادرة تعليم المكفوفين الكرنيين في منزله بـ «كرن»، بعد أن عرفهم، وزارهم في منازلهم، ويعيش الآن بقية حياته في الولايات المتحدة الأمريكية، بعد إخفاقه في فتح مدرسة تعليم المكفوفين بـ «كرن»، إذ حالت أنظمة الجبهة الشعبية بينه وبين جمع تبرعات من الخارج لفتح هذه المدرسة، الأمر الذي اضطره إلى مغادرة الديار والعيش في الولايات المتحدة الأمريكية، عصمه الله في دينه وصحته.